الفصل الأول

الحرية في الأديان

المفروض في الحرية أن تكون الأساس لجميع ما رسمته الأديان من عقائ،د ونظ،م وتشريعات. ولكن ما بيناه في هذا الكتاب يدل دلالة قاطعة على أنه لم يكن للإنسان حرية في عقيدته، أو دينه في الأديان السابقة على الإسلام؛ فلم يكن حرًا في التفكير فيما يدين به ، وحتى كان محرمًا عليه إبداء رأيه في كنه الإله الذي يعبده ، وكان من الكفر أن يبحث في نظم عبادته أو تفصيل ما شرع له.

فكيف يمكننا أن نقول أنه كان في الأديان السابقة أي نوع من أنواع الحرية، حيث انعدمت الحرية الفكرية حينما حرم على الإنسان التفكير فيما يعبد، أو فيما يعلم، وما لا يعلم. وقد انقرضت الحرية السياسية حين تحكم الكهنة الطغاة الذين كان قولهم من قول الآلهة، فلا مناقشة لما يقولون ولا نقض لما يحكمون به، كما كانت الحياة خالية من الحرية المدنية، لأن الإنسان كان عبدًا لما يمليه عليه القائمون على شئون الدين، ومن هنا يمكن القول

بإنعدام الحرية الدينية، لأن ذلك الإنسان نفسه لم يكن عامًا فيوليه الدين حقوقا عامة.

ولن يغيب عن البال الحكم على سقراط بشرب السم وموته شهيد الحق، لأنه أفشى أسرار الوحدة وخلود الروح ، واعتبر سقراط كافرًا، وسر كفره أنه لم يشترك في الأسرار أو في القسم الذي يربط به المشتركون في الأسرار، وأن موته ليفسر لنا انعدام الحرية الفردية، سواء كانت في الأديان الوضعية، أو المبادئ الفلسفية.

والديانة اليهودية التي حرمت على الشعب اليهودي مناقشة الأحبار، والكهنة، والفريسيين. وأن القارئ لأسفار بني إسرائيل لن يرى ثورة من الشعب على أنبيائهم وكهنتهم إلا في سبيل المأكل والمشرب، أو ما لقوه في سبيل الهجرة من المشقة، كانوا كالسائمة لا يفعلون إلا ما يؤمرون، عاشوا حياتهم لا يطلبون إلا بما تنادي به البطن مدعين أنهم متمسكين بحريفية الأسفار.

ولكن اليهودية أطلقت الحرية في ناحية واحدة: هي التفكير واستغلال كل الطاقات لاستعباد الشعوب وتقويض مقاوماتها، ولكن ذلك لا يخرج عن الحدوود التي رسمتها الصهيونية العالمية، ومن خرج على تعاليم الصهيونية فهو كافر ومستحق النقمة، واللعنة، والطرد من الوسط اليهودي.

وجاءت المسيحية عقب اليهودية فجاءت تدعو للحرية الفكرية، حيث وجهت الأنظار إلى السماء بعد أن هجرتها، ودعت إلى الاتجاه إلى الله وتحرير العقول من أغلال المادة بعد أن تجردت تلك العقول وخويت النفوس من الروحانية وتحولت إلى مادية جامدة لا روح فيها.

وبعد أن رُفع المسيح عليه السلام، اختل نظام الدعوة التي جاء بها، فاستجدت الأفكار، وحرفت دعوة المسيح وشوهت المسيحية، فكثرت فيها الآراء الفلسفية، وأمسك الكهنة بزمام الأمور، وخرجت العقائد الكنسية فاحتلت المراكز، واستولت الكنيسة على مقاليد السلطة، واستغلت الشعب المسيحي أسوأ استغلال، مما أدى إلى وجود طوائف خارجة على الكنيسة.

ولما شعرت الكنيسة بوجود المفكرين الذين خرجوا عما رسمته من قواعد وأصول رأت في ذلك ما يهدد سلطانها وضعف مركزها أمام تيار الفكر الحديث والعلم الآخذ في النماء، فانطلقت تقاوم وتجاهد تلك الأفكار وذلك العلم، فحاولت تكميم الأفواه البريئة وتعطيل الأفكار الحرة التي تناقض النظريات البالية العتيقة.

ومن هنا كان العداء الشنيع بين الكنيسة وحرية الفكر من ذلك التاريخ، فاصطنعت نظرياتها عن الأرض، والأفلاك، والمواد بنظريات العلم القائمة على الدرس، والتمحيص، والتجربة.

ولما كانت نظريات العلم يؤيدها التجربة والواقع، وفتوحات العلم لا تدع مجالًا للشك في عظمة هذه الأداة المستجدة، فقد نشأت أجيال من العلماء والمفكرين تكره الكنيسة وتحتقرها، وأصبح هؤلاء العلماء والمفكرين يكونون في نفوسهم العداوة والاشمئزاز للدين ورجاله.

ولذلك كانت هناك جفوة بين الدين والعلم، وبين الكنيسة والفكر في حياة الأوروبين. وأما في الشرق فلم تكن هناك عداوة بين المفكرين ورجال الدين؛ وذلك لأن رجال الشرق عاشوا مُسلِّمين القياد لرجال الدين الذين تركوا لهم الحبل على الغارب إلا فيما يمس سلطان الكنيسة وقداستها، مما ولّد شبه جمود فكري في الشرق. أما الإسلام فقد قدس الحريات واعتبرها الدعامة الأولى في تصحيح العقائد وتطبيق التشريع، وكان حريصا على تطبيق الحرية في شتى شئون الحياة يمارسها الفرد سواء كانت حرية فكرية، أو سياسية، أو مدنية، أو دينية؛ وبذلك يصبح المسلم عضوًا ناضجًا في المجتمع، يفيد ويستفيد، وبه يكتمل نظام المجتمع الإسلامي.